المغامرة السوداء!

زهيرة البيلى

استيقظ سكان إحدى القرى المجاورة فى احدى ليالى شهر يولية عام ١٩٧٣ على صوت انفجار هائل . وفى صباح اليوم التالى تم العثور على أشلاء صغيرة لا يتجاوز الواحد منها ١٥ سنتيمترا وبقايا جثة فى قاع حفرة بلغ عرضها عدة أمتار .

بعد أن انقضت لحظات الدهشة الأولى . جمع رجال البوليس هذه الأشلاء فى سلة صغيرة وصل وزنها حوالى اثنى عشر كيلوجراما . أما رأس الجثة فلم يعثر عليه . وحتى الساعة لم يكن له بالفعل أى أثر . احتفظ الطبيب الشرعى بالسلة التى تعرف بداخلها على جزء من صدر به شعر . وأثر لعملية جراحية . هذا الشىء القليل الذى لا يفيد فى التعرف على شخصية القتيل .

لكنه فى مساء نفس اليوم . جاءت امرأة تبلغ عن اختفاء ابنها (٢٥ عاما) الذى يعمل موظفا فى احدى المحاكم . وكان الابن مشتركا فى بطولة الكاراتيه فى البلدة . لذلك كان عليه التوجه إلى المطار للانضمام لباقى الفريق . وقد غادر المنزل لكنه لم يصل قط إلى المطار . وهنا أبلغ أحد أصدقائه (٢٣ عاما) ويعمل مهندسا بأنه أثناء تناوله طعام الإفطار فى أحد المقاهى رآه فى صباح نفس اليوم من خلف الزجاج وكان يبدو أنه على عجل . وكانت تلك الشهادة دليلا كافيا أنه مازال على قيد الحياة .

لكن الطبيب الشرعى كان له رأى آخر . لأنه نقلا عن الأم أن الشاب كان يعشره شعر . وأنه سبق أن أجريت له عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية . وأن نفس العملية دعمه تطبق ودم الضحية والتى كانت من النوع النادر .

ومنذ ذلك اليوم لم يتلق البوليس أى أنباء عن الابن المختفى . ولكن بعد ثلاثة أيام استدعى الخبير السرى . الشاهد الوحيد الذى أكد أنه رأى صديقه المختفى فى اليوم الثانى للانفجار . وكان الشاهد شابا قارع الفؤام مفلطح الأنف بعض الشىء . له نظرات غريبة تنبعث من عينين ليس بهما رموش . أدعى ذلك الشاهد وهو مهندسا أنه رأى صديقه من خلف نافذة المقهى . كما أكد أنه كان على عجل . ولهذا السبب لم ينادِه . وأخذ الخبير السرى يمسح نظارته وهو يتأمل ذلك الشاب أمامه قال المحتمل أنه يكذب . ولكن ما الهدف ؟ هذا ما سيحاول اكتشافه فيما بعد . فإن كان صديقه قد قتل فإن المؤكد أن هذا الكذب لن يعيده ثانية إلى الحياة . وسيظل احتمال قائما ولكن الشبهة هنا سوف تتحول . وتوجه إليه شخصيا .

فكر الخبير السرى أنه لابد أن يكون للبوليس تأثير قوى . وربط هذا الجنون والدعر يمكن أن تكون شهادة المهندس مجرد باعث نبع من خوف شخصى ومحاولة لإبعاد الشبهة عنه شخصيا لأى سبب . لكن بعد أن تعرف رجال البوليس على الجثة وتأكدوا أن الابن المختفى هو الذى تم العثور عليه قتيلا وسط الانفجار . اختلف الأمر تماما . وكان على المهندس الشاب أن يعيد أقواله .

بدا المهندس شاحب الوجه . أخذ يتنفس بصعوبة ويامعان لمأول النظرات الغريبة الخاوية من الرموش مع الخبير السرى . ذلك الشاب الذى بشه الضفدعة أخر على أقواله السابقة مدعيا أنه لا يمكن أن يخطئ صديقه خاصة أنهما كانا يمارسان لعبة الكاراتيه معا ويشتركان فى هواية واحدة هى جمع الأسلحة . والمتفجرات .

أخذ الخبير يسير داخل الحجرة ذهابا وإيابا وهو يفكر بعمق شديد . لقد ثبت بعد التحريات أن المهندس ووالده ضمن مجموعة من الغواة المتعصبين . الذى يعملون على جمع الأسلحة النادرة . وكان الوالد مديرا عاما لشركة سويسرية فى القمر . ومن الواضح أنهم يتمتعون لتلك الطبقة المثرية الحال . وفى مزرعتهم بالقمر تم العثور على أجهزة ومعدات غريبة باهظة الثمن . ومبانى المزرعة لم يكن واضحا عليها الصيانة ولكن المعدات بدت لا معة تعتنى بها العناية . وقد دهش رجال البوليس أنفسهم من هذه الاكتشافات . لأنهم رأوا غرفة التعذيب

وقف الخبير السرى يتأمل الشاب الذى امتزج أنفاسه بصعوبة . ودار الخبير حول مكتبه كما لو كان يفكر بتركيز . ماذا يفعلون بتلك السلاسل والأطواق والمسامير ؟ ثم جلس الخبير وهو يبتسم وقال للشاب . « لابد ان والدك على علم بوجود غرفة التعذيب هذه . ولابد أنه يملك مالا وفيرا حتى انه قام بها عازلا للصوت . انكم تعلقون ضحاياكم على جدران المزرعة . ألم تستخدموا هذه الحجرة فى التعذيب ؟ » فأصر المهندس على أفكاره وقال إنها مجرد حجرة يحتفظون بداخلها « كرمى للفئران » تخيرته هو ووالده وأحيانا صديقهم المختفى .

وهكذا تطور الحديث بلا رابط حتى حانت ساعة الغداء . فسمح الخبير للمهندس الشاب بالتوجه لتناول غذائه حيثما يشاء . مستخدما سيارته الخاصة لكن بمجرد عودته اختفت العادلة شكل الاستجواب التقليدى . وعندما حدد المهندس أن صديقه كان يرتدى كالمعتاد قميصا وبنطلونا رماديى اللون . أكد له الخبير أنه نقلا عن والده القتيل تبين أنه كان يرتدى « بلوفر » فى هذا اليوم . وعلى الفور تدارك المهندس الأمر مدعيا أنه لا يتذكر . ولكن عندما سأله الخبير فى أى اتجاه كان يسير صديقه تردد الشاب قليلا ثم أكد أنه كان عائدا من الطريق الرئيسى ؟ . وأنه كان يتجه إلى محطة الأتوبيس . بينما فى الحقيقة أن محطة الأتوبيس كانت على الجانب الآخر من الطريق . وحتى إذا ادعى الشاب أنه كان يعانى السرقة الشمس فهناك شىء لم يستطع المأمور شرحه أو إيجاد سبب له . أو مبرر فكيف أن المهندس يتناول العشاء فى مقهى مغلق إذا كان هذا اليوم هو يوم عطلة رسمية وأمام هذه المفاجأة الجديدة طلب الخبير من المهندس أن يفكر قليلا فى هذه المشكلة لاذكا إياه ليتوجه للحظات إلى مكتب المأمور .

وسط هذا الغموض انصلح السحب الخبير إلى مكتب المأمور الذى يتوق للتحقيق . والذى كان من رأيه أن الشاب حقا غريب الأطوار . مقارنة من أوربا . خاصة ألمانيا . فقد نشأ وفى قلة منطقة من ذهب . لدرجة انه لم يكن يواسه ولم يلق أبدا أية معارضة . بل كان يفعل كل ما يخطر له . ومنذ الصغر كان والده يسبح بحنونه وحبه ويغمره بل ووفره بالأسلحة والمتفجرات . وهنا اقترح المأمور ضرورة التوجه إلى البلاد للحصول على اذن بالقبض عليه لاحتمالية جادة . وبما أنها حادثة بسبب إجراء بعض التجارب على المتفجرات . أو أنها مراهقة غبية انتهت بمحاولة لاخفاء الضحية .

لكن كان هناك تفسير آخر . فهذا المهندس الشاب مريض . ذكى . لكن عمره العقل لا يتجاوز عقل طفل فى السادسة من عمره . وهذا لأنه لم يعرف أى مانع أو معارضة لرغباته . والذى حدث أنه ربما أراد ذلك الصديق شراء بعض المعدات . ومن المحتمل أنهما اختلفا على السعر . وأمام ثورة الغضب قتله .

حقيقة إن شرح الخبير كان له أهمية خاصة . لكنه اوتكب فى نفس الوقت خطأ جسيما وبعد أن وضع أصبعه على لب المشكلة . لم يتوقع أن المهندس الذى لم يعارضه أحد فى حياته والذى لم تصادفه أية محنة عدا هذا الاستجواب . بدأ فجأة ولأول مرة فى حياته يناقض نفسه هذا بعد أن شعر بالخناق يضيق حوله وبأنه أصبح محاصرا . تصرف وكأنه طفل صغير فى حالة غضب . ولكن للأسف ومن المحزن أن هذا الطفل الصغير الغاضب مسلح بمسدس اصطادها تحت سريره . الشىء الذى لم يشك الخبير فى وجودها منذ اللحظة الأولى .

انطلقت أولى الرصاصات عندما كان الرجلان يتحدثان فى مكتب المأمور . وتعالى الصراخ . وفى الممر أحد أحد المحررين يتلوى على الأرض ممسكا بطنه . بينما احتياً الأحرف فجأة فى أحد الجدران . وأدت آثار الرصاصات إلى تطاير الجبس من حوله . فطار باقى المحررين فى الممر إذ كان معظمهم غير مسلحين . وحتى المسلحون منهم لم يجرؤوا على اطلاق النيران خوفا من حضور أية إصابات .

أخذ المهندس يطلق النيران على رجال البوليس وهو فى جنون حقيقى . واستطاع الوصول إلى ممر يطل على نافذة مفتوحة . وهنا افترض طريقه رجل بوليس مسن تلقى ثلاث طلقات ووقع صريعا مخلفا بجراحه . وعلى ارتفاع خمسة أمتار قفز المهندس على ظهر سيارة . فوجئ سائقها بوجه يظهر أمامه من خلف الزجاج . وجه له نظرات غريبة تجول ويلا رموش أبدا . أما فوهة المسدس فقد اصطدمت بالزجاج .

وفى حالة ذعر نزل السائق ليرى المهندس وهو يطلق بالسيارة كالاعصار . وبعد لحظات توقف الشاب عند بائع أسلحة فى احدى

صواعى فيما بعد أن قدم للبائع ترخيص حمل السلاح . وقام بشراء مسدس جديد وأربع علب من الرصاص . أى ٢٠٠ طلقة إنها عدد ضخم حقا

وفى مثل هذه الظروف أعلنت حالة الطوارئ فى المدينة . وانتشر رجال الأمن فى كل مكان . وراحت ثلاث سيارات بوليس أمام منزل أسرة المهندس . كانت الأم تغرقها بالداخل . وللحظات أخذ الخبر يتأمل تلك المرأة النحيفة وآثار جمال سابق مازال باديا على وجهها . شعرها قصير جدا . ووجناتها غريضتان . رقيقة للغاية من النوع الذى يعانى من الخوف المستمر . تتمتع بصوت عذب . بدون شك أن هذا الجمال وهذا الغناء هما اللذان صنعا هذا العملاق ابنها لم تكن المرأة تعرف أين ذهب زوجها الذى غادر البيت منذ نصف ساعة فقط .

وبعد أن تلقى مكالمة تليفونية من الابن أخذ يحرق بعض الأوراق ثم انصرف على الفور .

وكانت بالمنزل مجموعة رائعة ونادرة من الأسلحة والمفجرات . على المكتب اطلعت عليه الرصاص تماما كما لو كان الأب قد أعد حقيبة مما قبل رحيله . إذ كان يحمل مسدسا معه وكان الرماد فى المدفأة حيث أحرقت الأوراق مازال ساخنا .

مرت ليلة بأكملها دون أن يعثر البوليس على أثر للمهندس الشاب .

ولكن فى صباح يوم الأحد وفى حوالى الساعة العاشرة والنصف تلقى البوليس أول إشارة تنبئ عن اختفاء المهندس . لقد احتجز المهندس بعد أن حل الظلام داخل بيت من طابق واحد بإحدى ضواحى فينا . وعندما أصبح الصباح وفى حوالى الساعة العاشرة والربع كان سكان ذلك البيت ، وهما رجل وزوجته فى الخامسة والخمسين من عمريهما . جاءا للقضاء الليلة فاكتشفا وجوده . لكن المهندس اطلق عليهما النيران وقر هاربا بعد أن استولى على سيارتهما . وعندما وصل الجيران وبعد مجادلتهم لصوت الأعيرة النارية كان الزوجان قد فارقا الحياة وهما ممددان فوق أرض الشرفة الواسعة وسط بركة من الدماء .

وفى هذا اليوم الأحد من يوليه عام ١٩٧٣ فصل سكان مدينة فينا الصمت خوفا من أن يلتقوا بتلك النظرات الغريبة الخاوية من الرموش من المهندس الذى يبلغ الثالثة والعشرين من عمره والذى تحول بين يوم وليلة إلى عدو من الدرجة الأولى وإلى مطارد يتبعه البوليس فى كل مكان . لذلك فإن رجال الأمن أنه ربما هرب إلى الخارج واستطاع الإفلات من فتحات الشباك التى أقيمت حول فينا . وكان الخبر هو الوحيد الذى لا يصدق هذا الاحتمال الأخير .

- حتى هذا اليوم لم يكن الخبر سوى رجل بسيط . أما الآن فيوجد رأسه فى كل شىء بصفته الوحيد الذى يعامل عن قرب مع المهندس الهارب . وأخذ يكرر أنه لا يعتقد أن الشاب قد فر إلى خارج البلاد . ولكن الأرجح أنه يختبىء فى مكان ما بالقرب من بيته لقد انحصرت فكرة الخبر فى أن الشاب يدور فى حلقة مفرغة وهذا لأنه حريص على أن يبقى بالقرب من أحد . فليس له أصدقاء . ولا حتى صديقة معينة . وقد قال فى أحد الأيام لواحد من جيرانه إنه لن يتزوج أبدا . وهذا لأنه لا توجد امرأة جديرة به . والمرأة الوحيدة التى يحترمها هى أمه لذلك كان الخبر متأكدا أنه حتما سوف يلجأ إليها . وكان بالفعل على حق .

فى هذه الأثناء وفى شاطىء الأدرياتيك جاءت عائلة من فينا للقضاء العطلة . ونزلت من السيارة لتستقر أفرادها فى أحد الفنادق . وتأكد الأب أن الحريدة التى يشترك فيها والتى تسمى « أماه فينا » سوف تصله بانتظام .

وفى نفس اللحظة جاء حداد شاب للتصيد على حافة قناة . عندما بدأ الشاطىء فوجىء بشاب أعد يتأمله ويرمقه بنظرة غريبة لا رموش فيها

تقدم المهندس من الرجل واستولى على مفاتيح سيارته وبعد عدة لحظات أخرى شاهد ٤٠٠ كشاف وهو يزيل تلك السيارة ليقفز فى اعمرى . كما عثر طبيب اسنان فى كوخه على بقايا لطعام وبعض ملابس . إذ غير المهندس لباسه قبل أن يسرق سيارة الطبيب وبعض أسلحة الصيد و١٣٠ طلقة رصاص .

وعلى شاطىء الأدرياتيك بدأ رب تلك الأسرة يشعر بالضيق الشديد والملل بعد يومين فقط من بداية المصيف . لذلك أخذ يقرأ الحريدة كلها وحتى الاعلانات المبوبة . أما آخر ما قرأه فكان الآتى : « ١٩١٩ انطلاق يوم الاثنين بالقرب من البرج ولكنك لم يأت . سوف أعود ثانية إلى هناك يوم الأربعاء والخميس فى حوالى الساعة التاسعة . إلى حالا ى ٣٢٦ - ٧٤ - ٧ » ولم تكن تلك الأرقام سوى رقم تلفون المنزل الريفى الذى تملكه تلك الأسرة فى فينا . ولم يعد الأب حيالا هذا الغموض سوى أن هناك صيفا غير مرغوب فيهم قد هاجموا المنزل . ولم يشعر الأب بالضيق واخطر البوليس الايطالى الذى اخطر بدوره البوليس فينا . الذى حذر بوليس القرية . وبالقرب من فيلا تلك الأسرة وقفت سيارة طبيب الأسنان . فيلا قائمة على ربوة مرتفعة . تغرى أى رجل مسلح على أن يتمسك بمكانه فيها .

وفى هذه الأثناء دق جرس التليفون فى منزل المهندس . كان الوالد هو الذى تحدث إلى زوجته ليخبرها أنه على ما يرام وأنه سوف يعود قريبا من المنزل . أما المكالمة فكانت فى الحقيقة من سوبسرا .

وسط القرية الصغيرة وحول المنزل الريفى تجمع ١٧٠ رجلا . يرتدون الخوذ . وهم مزودون بالأسلحة الأتوماتيكية . وبالقنابل المسيلة للدموع . يرتدون الصدريات الحديدى الواقى من الرصاص . ومعهم مجموعات من الكلاب البوليسية التى أحدث تقدم بطء وحرص وبعد عشر دقائق وفى الوقت الذى اقترب فيه رجال البوليس من المبنى ظهر المهندس الشاب من الباب المفتوح . مثل الجنون تمكنا مسدسين واحد بكل الرصاص فى كل اليد فكانت عملية انتحارية حقيقية بعد أن اصابته طلقتان فى الرأس والذراع . واحد يتربح ووقع على الأرض بلا رجعة . ولكن لم تنته عملية المهندس عند هذا الحد . وفق الوالد المقارب .

استمر الخبر فى تفتيش منزل الشاب كما حاول حل رموز وشفرة كل قطعة ورق صغيرة تقع بين يديه . وفى النهاية عثر على ما اسماه مفتاح الشفرة التى كان يستعملها الأب وابنه كتاب عن المغامرات الله الأب من النوع الرخيص الغابط . فى هذا الكتاب جمد الأب نفسه على أنه يظل استطاع الوصول بواسطة طائرة إلى مركز للأبحاث النووية تحت الأرض ووسط غابة فى البرازيل .

وفى الحقيقة أن هذا الأب . البطل المزعوم لم يغضر إلى النسا لتحويل الرصاص إلى ذهب فقط . ولكنه تعامل مع ابنه عن طريق اعلانات صغيرة فى الصحف ونظم عمليات خطف كبرى . وبذلك عثر الخبر فى هذا المنزل على قائمة بأسماء عدة شخصيات هامة وخطط لعمليات خطف مجهزة ومعدة للتنفيذ . فلما السبب سرق المهندس الشاب سيارة فى شهر يناير . ثبت عليها الضوء الأزرق وجهاز اللاسلكى وغير لوحة الأرقام الرسمية . ليجعل منها فى النهاية سيارة بوليس استخدمها فى خطف اثنين أعد يتبعها منذ أسابيع .

لذلك لم يكن قبيل الانفجار هو أول ضحية لكنه كان طرفا ضمن عصابة خطيرة . ولم تكن عملية الانفجار سوى ١عملية تصفية حساب . دفعت الواحد منهم للتخلص من الآخر . ولم يستطع رجال البوليس تحديد هذا أبدا . لأنه فى يوم ٢٨ يناير ألقى المزيول فينا برقية من المزيول « بادن » تقول . إنه تم العثور على جثة لرجل فى الخمسين من عمره داخل حجرته فى أحد الفنادق . وكان الرجل بساعة هو والد المهندس الشاب الذى أطلق الرصاص على نفسه فى « الصدع » الشمالى بعد أن علم من الصحف ما حدث لابنه .

أما الأم فلم تترك شيئا من كل ما حدث جوفا . وخاصة هذه القصة الغريبة التى عاشها أهم رجلين فى حياتها تلك القصة التى تشبه المغامرات الرخيصة السوداء .

تصميم محمد ابراهيم